الدرس الخامس

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٥١-٧٧)

ثلاث قصص تتحقّق فيها مظاهر الرحمة والعذاب :

وبعد أن قال تعالى : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ ، ذكر ثلاث قصص تبيِّن كيف تتحقّق مظاهر الرحمة الإلهيَّة ، وكيف يتحقّق العذاب الأليم ، هذا ما تحكيه القصص التي قصّها علينا القرآن ، أو قصّتها علينا السورة بعد ذلك ، ذكرتْ السورة ثلاث قصص :

الأولى : قصَّة إبراهيم مع لوط ، حينما جاءتا في قصَّة واحدة .

والثانية : قصة أصحاب الأيْكَة وهم الذين أرسل إليهم شُعيب .

والثالثة : قصَّة أصحاب الحِجر وهم ثمود ، الذين أُرسل إليهم صالح عليه السلام .

قصة ضيف إبراهيم :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

أما القصة الأولى : فهي التي يقول الله تعالى فيها : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، نبِّئهم ، أي : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ونبِّئهم ، أي : عبادي عن خبر ضَيْف إبراهيم .

وكلمة ﴿ ضَيْفِ ﴾ : تصلح للواحد وتصلح للجمع[1] ، ولذلك هنا ضَيْف إبراهيم جماعة ، لم يكونوا واحدًا ، ولكن كانوا جماعة ، وفي سورة الذاريات : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ (الذاريات:٢٤،٢٥) ، ولذلك قال : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ ، فهم مجموعة .

أبو الضيفان :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الحجر:٥١) . وإبراهيم كان يُسَمَّي أبا الضيفان ؛ لأنه كان ممَّن يكرمون الضيف ، ويفتحون أبوابهم للضيوف ، مَنْ عرفهم ومَن لا يعرفهم ، عن عكرمة قال : كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب ، لكيلا يفوته أحد[2] .

---

(١) وتجمع على أضياف وضيوف وضياف وضيفان .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٣٦) ، والبيهقي في الشعب (٩٦١٧) .

هناك أناس يكرمون الضيوف إذا عرَفوهم ، وكانت لهم بهم صلة ، ولكنَّ إبراهيمُ يُكرم كلَّ ضيف ، كلَّ غريب عن البلد يستضيفه عنده ، فاستضاف هؤلاء القوم الذين لا يعرفهم ، وذَبَح لهم عجلاً حنيذًا مشويًا ، وقرَّبه إليهم .

من كرم الضيافة أن تُقرِّب الطعام إلى المَضِيف ، تُقدِّمه له ، وتُقرِّبه إليه ، فحينما قدَّم إليهم هذا العجلَ المشويَّ ، لم يأكلوا منه : ﴿ **فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** ﴾ (هود:٧٠) ، الضَّيْف عندما يقدَّم له الطعام ويأبَى أن يأكل منه ، لا بدَّ أن يخاف صاحب البيت منه ، ماذا يريد هذا الضيف؟

الفرق بين قول الملائكة : ﴿ سَلَـٰمًا ﴾ وقول إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ ﴾ :

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾

هم قالوا : ﴿ **سَلَـٰمًا** ﴾ . وإبراهيم **قال** : ﴿ **سَلَامٌ** ﴾ . يقولون في العربية : إنَّ (سلامٌ) أوكد من (سلامًا) ؛ لأنَّ (سلامًا) هذه جملة فعلية ، أي : نُسَلِّمُ سلامًا . أما (سلامٌ) فهي جمله إسميَّة ، أي : سلامٌ منِّي ، أو تحيتي سلامٌ . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا** ﴾ (النساء:٨٦) .

فإبراهيمُ ردَّ التحيَّة بأحسَنَ منها ، قال : ﴿ **قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ** ﴾ (الذاريات:٢٥) ، أنكر وجوهَهم ، ليسوا معروفين له ، وكما ذكرت السُّورة الأخرى ، زاد في إنكاره أنهم لم يأكلوا من طعامه ، ﴿ **فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** ﴾ (هود:٧٠) .

وهنا في سورة الحجر : ﴿ **قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾ (الحجر:٥٢) ، أي : فَزِعُونَ خائفون ؛ لأنهم لم يأكلوا من طعامه ، وهذا أدَّى إلى الخوف منهم .

البُشرى بالغلام العليم :

﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ (١)

﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ ، كشفوا عن حقيقتهم ، وعرَّفوه أنهم ملائكةٌ من الله عزَّ وجلَّ .

﴿ إِنَّا ﴾ رسل ربك ، ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ : نُبلِّغك ما يسرُّك ويُسْعدك ، ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ : شاب بالغ ، ﴿ عَلِيمٍ ﴾ : ذي علم كثير .

قَدِمُوا إليه وبشَّروه بغلام عليم ، قالوا : إنَّ هذا الغلام هو إسحاق عليه السلام ؛ لأنَّ إسماعيل جاءته به البشرى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات:١٠١) .

إنَّ سيدنا إبراهيم رزقه الله غُلامين على الكبر ، كما ذكرنا في سورة إبراهيم ، قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (إبراهيم:٣٩) .

فإسماعيل أوَّل من بُشِّرَ به بعد أن نُجّي من النار ، قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات:١٠٠،١٠١) .

الغلامُ الحليمُ والغلامُ العليمُ :

إسماعيل غلامٌ حليمٌ ، وإسحاق غلامٌ عليمٌ ، ويبدو حِلْم إسماعيل عليه السلام في قصَّته مع الذبح ، حينما قال له أبوه : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

---

(١) قرأ حمزة : ﴿ نَبْشُرُكَ ﴾ بفتح النون وإسكان الباء وتخفيف الشين وضمها ، من البِشْر ، وهو البشرى والبشارة ، وقرأ الباقون : ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ بضم النون وفتح الباء وتشديد الشين المكسورة من بَشَّر المُضعَّف على التكثير . ينظر : (النشر : ٢/٢٢٩) ، و(معجم القراءات القرآنية : ٣/٢٥٧) .

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصافات:١٠٢) ، وأَسْلَمَ عُنقَهُ لله ، فهذا نهاية الحِلْم ، وذلك يدلُّ على أنَّ قوله : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ ، هنا غير : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات:١٠١) هناك .

البُشْرى بإسحاق بعد إسماعيل :

وجاءت البشارة بإسحاق مكافأةً لإبراهيم على تضحيته ، وطاعته لأمر ربِّه في شأن ابنه إسماعيل ، ولذلك قال في سورة الصَّافَّات : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾ (الصافات:١١٢،١١٣) .

بعد أن ابتُلي بالبلاء المبين ، فدى الله إسماعيل بذِبح عظيم ، قال : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . . . وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الصافات:١٠٧-١١٢) ، فهذه البشارة جاءت بعد قصة إسماعيل عليه السلام قال : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾ (الصافات:١١٢،١١٣) .

الإجمال والتفصيل في قصص الأنبياء :

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾

في سورةِ هود ذُكرت هذه القصة بتفصيل أكثر ، وفيها ذكر زوج إبراهيم عليه السلام حينما عجبت : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود:٧٢،٧٣) .

لقد فصَّل في سورة هود ، وأجمل في غيرها ، لأنَّ القرآن يذكر القصص في سور مختلفة ، ولكنه في كلِّ سورة يذكرها بطريقة غير الطريقة التي ذُكرت في سورة أخرى ، يُجْمل هنا ويفصِّل هناك ، يذكر جوانب من القصَّة في بعض ما يذكر من السور ، ولا يذكرها في الجانب الآخر ، على حسب السياق وما يقتضيه .

تَعَجُّب إبراهيم أن يُولَد له على الكِبَر :

﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ (١)

بشَّروه بغلام عليم ، وكأنه يريد أن يسمع البشرى مرَّةً أخرى . ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، لأنَّ ما تبَشِّر به الملائكة عن الله عزَّ وجلَّ لا يكون إلا حقًّا ، ولا يكون إلا أمرًا ثابتًا لا يتخلَّف ، وما وَعَدَ الله وعدًا إلا أنْجزَه : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف:٩٨) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾(آل عمران:٩)، ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٦) .

القنوطُ من رحمة الله :

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (٢)

يستحيل أن أقنط ، لأنَّ القنوط من مظاهر الضَّلال ، كما أنَّ اليأسَ من لوازم الكفر .

وقد قال سيدنا يعقوب عليه السلام حفيدُ إبراهيم ، قال لبنيهِ حينما أرسلهم إلى مصر : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) ، فانظر إنها حقًّا ذريَّةٌ بعضها من بعض ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران:٣٤) .

---

(١) ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بالصدق وما هو واقع حقا ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ ، أي : لا تكن من اليائسين ، من رحمة الله وفضله .

(٢) ﴿ يَقْنَطُ ﴾ قرأ أبو عمرو ، والكسائي ويعقوب ، وخلف : (يَقْنِط) بكسر النون . وقرأها باقي العشرة : (يَقْنَط) بفتح النون . والقراءتان لغتان عربيتان .

﴿ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ : المخطئون طريق المعرفة الحق ، فلا يعرفون سعة رحمة الله ، وكمال علمه وقدرته . والاستفهام للإنكار الإبطالي ، أي للنفي والاستبعاد يريد به إبراهيم نفيَ قنوطه .

يعقوب عليه السلام يقول : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) ، لا يَيْأَس من رَوْحِ الله إلا من يجهل قُدرة الله عزَّ وجلَّ ، ويجهل نفوذَ مشيئته ، وأنه إذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون ولا بدَّ ، فلا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقِّب لحكمه ، فلا يمكن أن يكون نبيَّ من أنبياء الله يائسًا أو قانطًا : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ .

ويقول الله عزَّ وجلَّ مخاطبًا نبيَّه محمدًا ﷺ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) .

تمثُّل الملائكة بصورة بشريَّة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

التفت إبراهيم إلى هؤلاء الملائكة الذين جاءوا في صُورة بشر ، والملائكة تستطيع أن تتصوَّر بصورة البشر ، ولا يتصوَّرون إلا في صورة شريفة ، لا يتصوَّرون في صورة البهائم ، ولا الثعابين ، ولا أمثال هذه الكائنات ، وإنما تتصوَّر الملائكة بصورة كريمة مثل الإنسان ، كما كان جبريل عليه السلام يأتي أحيانًا إلى النبيِّ ﷺ في صورة بشر ، كما جاء في صورة الرجل الذي لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه من الجالسين أحد(١) ، وهو غريب قادم من الخارج ، وكما كان يجيء في صورة واحدٍ من الصحابة اسمه : (دِحُية الكلبي)(٢) ، وكان من أجمل الناس وأحسنهم صورة .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٨) ، وأبو داود في أول كتاب السنة (٤٦٩٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، وابن ماجه في القدر (٦٣) ، عن عمر .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٥٨٥٧) وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، بلفظ :« وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية ». عن ابن عمر .

فالملائكة تتصوَّر بصور بشريَّة ، لذلك جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام في صورة البشر .

الشأن العظيم الذي أرسلت به الملائكة :

التفت إبراهيم عليه السلام إليهم ، وقال : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ما أمركم الخطير ، وما شأنكم الذي أُرسلتم لأجله سوى البشارة؟ وهوعالمٌ أنهم لم يجيئوا بهذه البشارة وحدها ، بدليل أنهم لم يبدءوه من أوَّل الأمر ، ثم البشارة تحتاج إلى واحد وهؤلاء جماعة ، قال : لا بدَّ أنَّ لكم شأنًا وقصدًا عظيمًا خطيرًا جئتم من أجله .

قصة قوم لوط :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

قصة قوم لوط كرَّرها القرآن في عددٍ من السُّور ، ذُكرت قبل ذلك في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(الأعراف: ٨٠-٨٤)، وذُكرت في سورة هود : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ

لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (هود:٧٧-٨٣)، وفي سورة الحِجْر التي معنا، وستُذكر بعد ذلك في عددٍ من السور.

إنها قصَّةٌ غريبةٌ، قصَّةُ قومٍ أدْمنوا الفاحشة، كما قال لهم نبيُّهم لوط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠)، ابتكروا هذه الفاحشة ابتكارًا، فكان عليهم وِزْرها ووزر مَن عملها مِن بعدهم، كما في الحديث الذي رواه مسلم: «مَن سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر مَن عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[(١)].

إنهم ابتكروا هذه الفاحشة، ما حَدَثتْ هذه الفاحشة في قوم من الأقوام قبل قوم لوط، فاحشة إتيان الذكور، أو ما كانوا يسمُّونه في عصرنا: (الشذوذ الجنسيّ). والآن لم يعودوا يسمُّونه الشذوذ الجنسي؛ لأنَّ كلمة الشذوذ هي اسم ذمٍّ، وهؤلاء لا يريدون أن يذمَّهم أحد، فأصبحوا يسمُّونه: (المثلية). أي: الرجل يأتي الرجل، والمرأة تأتى المرأة، قوم لوط قاموا بهذه الفاحشة وأصبحت معروفة بينهم، واستمرؤوا هذه الرذيلة، وتركوا نساءهم اللائي خَلَقهنَّ الله لهم، فجاء عن سيدنا لوط في سورة الشعراء: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء:١٦٥، ١٦٦).

---

(١) رواه مسلم في العلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله.

لقد خلق الله المرأة للرجل : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾(البقرة:١٨٧) ، حتى الخلقة الجسمية مهيَّأة لذلك ، ولكن هؤلاء انتكسوا وارتكسوا ، قلبوا فِطْرَةَ الله التي فطر اللهُ الناس عليها ، فلذلك استحقُّوا عذاب الله ، ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ ، فجاء هؤلاء الرسل من الملائكة لِيُنْزلوا بهم عذاب الله .

حقيقة المُهمَّة التي أُرسل الملائكة من أجلها إلى إبراهيم :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [1] ، أي : أُرْسلنا لهم بالعذاب ، فهم بسبب كونهم بلغوا حقيقة الإجرام يستحقُّون الإهلاك الشامل ، واستثنوا لوطًا وآله ، فقالوا : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ [2] إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ [3] أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ [4] قَدَّرْنَآ [5] إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾، أي : من الباقين في العذاب ، ليست ممَّن كُتبت لهم النجاة ؛ لأنها كانت ضدَّ زوجها سيدنا لوط ، وكانت تُعَرِّف القوم بمَن يأتي إلى لوط من الضيوف ،كانت نمَّامَة كلما جاء للوط ضَيْفٌ ذهبتْ إلى قومها وأخبرتهم بمجيئهم .

---

(١) في الآية كناية . أي : هم مرسلون إلى إهلاك قوم مجرمين وتعذيبهم ، ففي وصفهم لقوم لوط عليه السلام بأنهم قوم مجرمون ، مع قرينة إرسالهم من الله لهم ، كناية عن أنهم يحملون رسالة تعذيب وإهلاك لهم .

(٢) الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ استثناء منقطع من قوم ، لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط لم يجرموا .

(٣) قرأ حمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف : ﴿ لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ بالتخفيف ، من فعل (أنجى) والباقون بالتشديد (لمنجُّوهُم) من فعل (نجَّى) وهما لغتان عربيتان متكافئتان . (التيسير للداني : ص١٣٦) ، و(ومعجم القراءات القرآنية : ٢٦٠/٣) .

(٤) الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ : استثناء من استثناء ، وتقديره : أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته .

(٥) قرأ أبو بكر عن عاصم : ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ بتخفيف الدال ، والباقون بتشديدها . (النشر : ٢٠٢/٢) ، و(معجم القراءات القرآنية : ٢٦٠/٣) . وهما لغتان عربيتان بمعنى تحديد مقادير عناصر الأشياء .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ[1] ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

أتى الملائكة لوطًا عليه السلام في داره ، وفي الدار زوجته وأبناؤه ، ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ قال لوط لهم : أنتم مجهولون بالنسبة إليَّ لا أعرفكم ، ولا أعرف من أيِّ قوم أنتم؟ وذلك قبل أن يكشفوا القناع عن أنفسهم . أنكرهم وما عرفهم ، وقال : ما الذي جاء بكم إلى هذا البلد؟ مَنْ يخاطر بنفسه ويأتي بلدًا مثل هذا ، فيفترسه أهلها؟ ولا يمكن أن ينجوا منهم ، أما سمعتم بما يفعلون ، أنكرهم و ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ .

﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

جئناك بعذاب هؤلاء القوم ، الذي يشكُّون في نزول العذاب بهم ، ويستبعدونه ولا يظنُّون أنَّ نقمة الله تنتظرهم ، وأنَّ الله لهم بالمرصاد ، وأنَّ الله يُمْهِل ولا يُهْمِل : ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[2] .

﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾

أي : بالعذاب المتيقَّن الثابت الذي لا شك فيه ، المقرَّر لهم من الله عزَّ وجلَّ ، ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ ، فيما نقوله[3] .

---

(١) المرسلون : هم الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم عليه السلام ، و ﴿ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ : فاعل مؤخر مرفوع بالواو .

(٢) فأتوا بكلمة : ﴿ بَلْ ﴾ التي تدل على الإضراب مما خشيه لوط من ترك نصرتهم له ، أي : ما تركنا نُصْرَتك ، بل جئنا لِنُصْرتك بالعذاب الذي كنتَ تتوعَّد قومك به ، وكانوا يشكُّون فيه ، ويكذبونك من أجله ، ثم أكَّد الملائكة كلامهم قائلين : ﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾.

(٣) وتأكيدًا لصدقهم بادروا إلى نُصرته ، فطمسوا أعين قومه ، وأخذوا على أبصارهم ، فانصرف قوم لوط وهم لا يبصرون شيئًا ، يتلمَّسون طريقهم بأيديهم ، وهم يقولون : إنَّ لوطا يؤوي في بيته أسحر أهل الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ (القمر:٣٦-٣٩).

أمر الملائكة بالمسير ليلاً :

﴿ فَأَسْرِ[1] بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾

ثم أمرت الملائكة لوطًا عليه السلام بعد أن هدَّؤوا قلقه ، وسكَّنوا خوفه ، بأوامر أربعة :

الأمر الأول :

أن يترك هذا البلد الظالم أهله ، ويهاجر مع المؤمنين من أهل بيته ، لينجوا من العذاب الذي سينزل بهم ، فقال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ، في جزء من الليل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ (القمر:٣٤) ، فقال له : أَسْرِ . والإسراء : هو السَّيْر بالليل . كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء:١) ، فقال له : أَسْرِ بأهلك في جزء من الليل ، بعد منتصف الليل ، اخرج من هذا البلد ، من هذه القرية التي تعمل الخبائث .

الأمر الثاني :

أمير الجماعة يسير خلفهم :

﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ ، أي : امْشِ خَلْفهم لكي ترى من هناك ، ليس أحدٌ قد تخلَّف[2] .

---

(١) قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو جعفر : ﴿ فَأَسْرِ ﴾ من فعل : (سرى) . وقرأها باقي القراء العشرة : (فأسْرِ) من فعل : (أسْري) . وهما لغتان عربيتان .

(٢) وصَّى الملائكة لوطًا عليه السلام بأن يكون في مؤخِّرة أهله ليجمعهم ، وليطَّلع على أحوالهم ، وهكذا ينبغي أن يكون حال أمير القوم أو الجماعة في حال الانسحاب من مكان الخطر ، يسير في آخرهم ، ويقدِّم نجاتهم على نجاة نفسه ، ويحمي ضعيفهم ، ويحمل المنقطع منهم .

وتلك كانت سُنَّة النبي محمد ﷺ ، فقد كان يمشي خلف الجيش[1] ، يحمل المنقطع ، ويرى حاجة العاجز . فقال : اتَّبع أدبارهم ، كُنْ خَلْفَهم حتى تطمئنَّ أنهم كلُّهم صاروا أمامك .

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

الأمر الثالث :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ : لا تنظر إلى الخلف ، دَع القوم وما ينزل بهم من عذاب ، حتى حينما تسمعون الصَّيْحة أو الصَّاعقة لا علاقة لكم بهؤلاء[2] .

الأمر الرابع :

﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾[3]، إلى المكان الذي تُؤْمَرون به ، إلى القرية التي ستذهبون إليها ، التي ليس فيها عمل السيِّئات .

القضاء المبرم باستئصال قوم لوط في الصباح :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[4]

قضينا إلى لـوط ذلك الحُكم الذي قَضَاه الله إليـه ، وأوحـاه إليـه مبتوتًا مقْضيًا

---

(١) إشارة إلى حديث : «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ، ويردف ويدعو لهم» . رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٣٩) ، والحاكم في الجهاد (١١٥/٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وحسن إسناده النووي في رياض الصالحين (٩٧١) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٢٠) ، عن جابر بن عبد الله .

(٢) أو لا يلتفت منكم أحد متحسِّرًا على مفارقة الوطن .

(٣) الفعل في : (تؤمرون) بصيغة المضارع يدلُّ على أنَّ آمرا سَيُوجِّه لهم الأمر بالسير في الطرقات ، وإلى الجهات التي يعينها لهم آنًا فآنًا .

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي : ذلك الأمر الجليل العظيم الهائل الخطير . (ذلك) مفعول به لفعل (قضينا) . (الأمرَ) بدل من (ذلك) أو عطف بيان . وجاء في العبارة استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد ، للدلالة على أن الأمر العظيم الفظيع الذي كان مستبعدًا جدًّا ، وقد تمَّ به القضاء الرباني ، وصار حقيقة وشيكة الوقوع (معارج التفكير) (٧٢/١١) .

لا رجعة فيه : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [1] ، حقَّت عليهم كلمات الله : أنه في الصباح سيقطع دابرهم ، آخر مَن يبقى منهم على قَيْد الحياة ، وإن انقطع آخرهم ، فقد انقطع أوَّلهم ، فالمعنى : فقُطع القوم جميعهم ، من أولهم إلى آخر واحد فيهم .

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام:٤٥) ، سيقطع الأمر ، ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ ، حينما يصبح الصباح وتُشرق الشمس ينزل عذابُ الله بهؤلاء ، يستقبلون عذابَ الله ، الناس تستقبل الصباح بالخير والبركة ، وهؤلاء يستقبلهم العذاب ، كما قال تعالى في سورة هود : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (هود:٨١) ، ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ ، في ساعة الصباح والإشراق .

استِبْشار أهل المدينة بضيوف لوط :

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

أهل المدينة : هم أهل مدينة سدوم [2] ، وهم قوم لوط ، لما أُخبروا أنَّ في بيت لوط رجالاً مُرْدًا حسانًا وهم الملائكة .

---

(١) هذه العبارة بدل من ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ لتفسيره ورفع إيهامه الذي جاء بأسلوب فيه تهويل وتعظيم . وهو بدلُ كلٍّ من كل . ودابر الشيء : أي : وآخره . ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ بالإهلال وعن البقاء في الحياة الدنيا . وأصل القطع : البتر لفصل الشيء عما هو موصول به ، فقطع الحيِّ عن الحياة يكون بإماتته وإهلاله ، وقطع الأبنية والقرى يكون بتدميرها وإزالة كل أثر لها ، وقطع الشيء عن الوجود يكون بإعدامه . ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي : حالة كونهم داخلين في وقت الصبح أوَّل النهار .

(٢) المراد بأهل المدينة : كبراؤها وأصحاب الأمر المطاع فيها ، ومعهم أتباعهم وأنصارهم .

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [1] يغمرهم الفرح والسرور بما سيلقون ، الواو هنا لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا[2] ، جاؤوا طمعًا في نَيْل شهوتهم من الضيوف ، جاءوا فرحين ، بالغنيمة الجديدة ، بالصَّيْد الذي أقبل عليهم .

التَّصدي والدفاع عن ضيوفه :

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾

قال لوط عليه السلام لقومه : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾ . أي : ضيوفي ، وحقٌّ على الرجل أن يكرم ضيفه ، أي : يا قومي ، هؤلاء الناس ضيوف عليَّ ، نازلون في ضيافتي وحمايتي ، فلا تفضحوني[3] .

﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [4]

يريد أن يُذكِّرهم بالله ، يذكِّرهم بالتقوى ، يُذكِّرهم بمكارم الأخلاق ، ضَيْفٌ على البلد ، وعلى سيد البلد لوط ، فيأتي القوم يريدون أن يفترسوهم .

---

(١) أي : يتجدَّد لهم الفرح والسرور ، ويبشِّر بعضهم بعضًا بهذه الغنيمة السهلة . فاستعمل لفظ : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ في معنيين . يقال لغة : (استبشر) أي : فِرح وسُرَّ ، ويقال : استبشر فلانٌ فلانًا ، أي : بشره بما يفرحه ويسُّره .

(٢) بعد أن استبقت الآيات الحوادث ، وبادرت إلى كشف حقيقة ضيف لوط والمهمة التي جاءوا من أجلها ، عادت إلى الوراء لتبيِّن شذوذ قوم لوط ، وما فعلوا حين سمعوا بقدوم ضيف لوط عليه السلام .

(٣) أي : لا تفعلوا ما يلزمني العار منه في حقِّ ضيفي فإيذاؤهم إيذاءٌ لي ، وخزيٌ وعار ، وأنتم جديرون أن تحفظوا جواري . .

(٤) ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ وتجنَّبوا عصيانه والزموا طاعته ، ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ولا تذلوني بظلم ضيوفي ، لأنَّ من أُهين ضيفه فقد أُهين هو .

تَسَعُّر شهوة الشذوذ عند قوم لوط :

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1]

قبل هذا نهيناك ، وقلنا : لا تستضف أحدًا يمرُّ بهذا البلد ، كلُّ مَنْ يمرُّ بهذا البلد هو حقٌّ لنا ، ومَتَاعٌ لنا ، لماذا تستضيفهم وتحميهم عندك؟

سوَّل لهم الفساد ، والشذوذ ، والهوى الجامح أن يلقوا تَبِعة فجورهم مع الضيوف على نبي الله لوط!!

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ [2] إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾

ثمَّ ذكَّرهم بالطريق الفطريِّ الذي أحله الله لقضاء الشهوة المتقدة في نفوسهم : ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ ، ما آمركم به ، تزوَّجوا من بناتي كما هي الفطرة الطبيعيَّة ، كما هي طبيعة الخلق ، وكما هي شريعة الخالق .

وفي سورة هود يقول : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ (هود:٧٨) .

ما المراد ببنات لوط ؟

هل يريد بناتِه من صُلبه؟ أم يريد بنات أهل البلد؟ فجميعُهنَّ يُعْتَبَرْنَ بناته ؛ لأنه يعتبر بمَثَابة الأب لهم ، وتعتبر البنات كلُّهنَّ بناته ، هذا محتمل ، وهذا محتمل [3] .

---

(١) الاستفهام إنكاري توبيخي .

(٢) فتح ياء المتكلم من : (بناتيَ) نافع ، وأبو جعفر . وأسكنها باقي القراء العشرة .

(٣) وعلى كلا الاحتمالين ، فإن لوطًا عليه السلام ، كان يعلم من عاداتهم وتقاليدهم أنهم لا يعتدون على نساءٍ لا حقَّ لهم بمعاشرتهنَّ إلا عن طريق الزواج ، حفاظًا على أنسابهم ، فأراد أن يحرجهم بعرض بناته عليهم ، وهو يعلم أنهم لن يقبلوا ذلك ، ولو فعلوا لافتَضحوا وسقطوا من أعين قومهم ونسائهم ، ولفجرت نساؤهم نكايةً بهم . لكن عادة إتيان الذكور لم تكن تثير غيرة نسائهم ، وكانت في نظرهم بمثابة الأمور العادية ، كالطعام والشراب واللهو واللعب ونحو ذلك . ودلَّت عبارة ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ باستخدام حرف الشرط (إن) على أن لوطًا عليه السلام كان على علمٍ بأنهم لن يصيبوا عرضه ، لأن حرف الشرط (إنْ) يقصد استعماله في الأمر المشكوك فيه ، أو فيما لا ينتظر وقوعه . (معارج التفكر : ٧٥،٧٤/١١) .

وهو يقصد أن يتزوَّجوا من النِّساء ، ونَسَبَ البنات له لعلَّهم يَسْتَحون ، كما يقولُ أحدُنا للغضبان : يا أخي ، اضربـني أنا ، خُذْ حَقَّكَ منِّي ، فيمكـن أن يستحيـوا أو يخجلوا ، ولكن مَن هم؟ هؤلاء قومٌ لا تؤثِّر فيهم موعظة ، يُخاطبهم : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ : هل هم يعرفون الله حتى يتَّقوه؟ إنَّ هؤلاء أصبحوا عبيد الشهوة ، الغريزة أصبحت تستعبدهم وتُسَخِّرهم ، وليتهم سخَّروها في منفذ طبيعيٍّ كما يفعل الناس الأسوياء ، وذلك بالزواج من الحرائر ، ولكن هكذا مَشَوا في هذا الطريق المعوج[1] .

حَلِفُ الله سبحانه بعَمْر النبي ﷺ :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [2]

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ : قَسَمٌ بالعُمُر ، بالحياة ، هل هذا خطابٌ للنبيِّ ﷺ؟ الأكثرون على أنَّه خطابٌ للنبيِّ ﷺ [3] .

---

(١) لقد أعرضوا عن عرضه ، وقالوا له ما جاء بيانه في سورة هود : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ (هود:٧٩) .

(٢) (لعمرك) : العمر ـ بفتح العين أوضمها ـ هو الحياة : وإذا حلفوا به ، التزموا الفتح ، فالمعنى : وحياتك . واللام لام القسم ، (عَمْرك) مبتدأ مضاف إلى ضمير المخاطب ، والخبر محذوف تقديره : (قسمي) أو (يميني) وهو لازم الحذف . والمقسَمْ عليه جملة : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ والسَّكرة : المرَّة من السُّكر ، هو غيبوبة العقل بسبب الشراب المسكر ، أو الغضب أو الشهوة العارمة الطاغية التي حجبت عقولهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : يتحيَّرون ويترددون منطمسي البصائر . العمه في البصيرة كالعمى في البصر .

(٣) قال القاضي أبو بكر بن العربي : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد ﷺ تشريفا له . وهكذا قال القاضي عياض : أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ ، وأصله ضم العين ، من العمر ، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ، ومعناه : وبقائك يا محمد . وقيل : وحياتك . وهذا نهاية التعظيم ، وغاية البشر والتشريف . (تفسير القرطبي : ٣٩/١٠)

معنى هذا : أنَّ الله حَلَف بحياة محمد ﷺ ، وهذا لونٌ من التَّشريف والتكريم لم يظفر به نبيٌّ غير محمد ﷺ ، أن يقسم الله بحياته [1] .

وبعضُ المُفسِّرين يقول : هذا خطابٌ من الملائكة للوط عليه السلام ، قالوا له : لَعَمْرُكَ ، ماذا تقول لهم؟ هؤلاء لا يلتفتونَ إلى الزواج بالبنات ولا بالنِّساء ، هؤلاء انتكست فطرتهم .

مصيبة الإدمان :

﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

فما استطاعوا تمييز الخطأ من الصواب ، يشير إلى مصيبة الإدمان .

الإنسان حينما يُدْمن شيئًا ويداوم عليه يَفْقد عقله ، يفقد رُشْدَه ، يفْقد إرادته ، يفْقد إنسانيَّته ، فهؤلاء فقدوا إنسانيَّتهم ، فأصبحوا كالأنعام ، بل هم أضلُّ من الأنعام سبيلاً ، فالبهائم لا تفعل ما يفعل هؤلاء ، لا نجد ثورًا يطأ ثورًا،ولا كلبًا يطأ كلبًا. لا ثمَّ لا ، الكلب لا يطأ إلا كلبة ، والثور لا يطأ إلا بقرة ، لكن هؤلاء أصبحوا كالبهائم ، بل أضل من الأنعام سبيلا .

ثلاث عقوبات نزلت بقوم لوط :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [2]

اللهُ تعالى أهلك الأُمـم المكذِّبة للأنبياء والمرسلين ، كـل أمـة بنـوع مـن أنـواع

---

(١) روى الطبري في تفسيره (١٤/٤٤) ، والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٩٧٤) ، عن ابن عباس : ما خلق الله تعالى خلقا أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته ، فقال : ﴿ **لعمرك** ﴾ .

(٢) (فأخذتهم) أي : نزلت بهم وأهلكتهم جميعًا ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ : صيحة جبريل بهم ، وهي صرخةٌ صوتية عظيمة تزلزل وتدمِّر ، ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ عند شروق الشمس ، لأنَّ ابتداء عذابهم كان عند طلوع الفجر ، وآخره عند طلوع الشمس .

العذاب ، أما قوم لوط فقد أهلكهم الله عزَّ وجلَّ بثلاثة أنواع من العذاب ، كلُّ واحدة منها تكفي لاستئصالهم وإهلاكهم جميعًا :

العقوبة الأولى :

(فأخذتهم) أي : نزلت بهم وأهلكتهم جميعًا ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ : صيحة جبريل أو ملائكة العذاب بهم ، وهي صرخةٌ صوتية عظيمة تزلزل وتدمِّر ، ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ عند شروق الشمس ، لأنَّ ابتداء عذابهم كان عند طلوع الفجر ، وآخره عند طلوع الشمس .

الجزاء من جنس العمل :

﴿ فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ (١)

وصحب هذه الصيحة ، وهذا الصوت الشديد الهائل القاصف ، شيءٌ آخر وعقوبةٌ ثانية ، وهي : أنَّ جبريل قَلَع الأرض بهم ، ورفعها إلى السماء ، ثم أهوى بها مقلوبة نحو الأسفل ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ (الحجر:٧٤)، جعَلَ الله عاليَها سافلها ، وسافلها عاليَها(٢) ، وقلب بلادهم .

قلبوا الفطرة ، وارتكسوا وانتكسوا ، فعُوقبوا بمثل عملهم ، والجزاءُ من جنس العمل ، قَلَبَ الله عليهم قريتهم ، وجعَل عاليَها سافلَها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾

---

(١) الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب والسببيَّة . ويتحدث الربُّ سبحانه في قوله : ﴿ فَجَعَلْنَا ﴾ ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ بضمير المتكلم العظيم لإرهاب الكافرين المعاندين المتمادين في غيهم ، جلَّ جلاله ، وعظم سلطانه .

(٢) حُذف هذا اكتفاء بدلالة ما قبله عليه .

وزاد على ذلك ، شيئًا آخر ، وعقوبةً ثالثة ، وهي : المطر المتتابع بحجارةٍ من طينٍ مشويٍّ متحجّر ، حُمِيَ عليه حتى أصبح سجّيلاً : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

في هذه السورة : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ، وفي سورة هود : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ (هود:٨٢،٨٣) ، كلُّ حَجَرٍ مُعلَّمٌ بعلامة خاصَّة ذاهبٌ إلى صاحبه ، فأهلكهم الله جميعًا ، حاضرهم وغائبهم ، إذ تتبعتهم الحجارة فأهلكتهم ، وطهَّرت الأرض من فسقهم ورجْسهم .

فعُوقبوا بهذه العقوبات الثلاث جراء ما عملوا ، ويمكن أن يكون ما وقع لهم ظاهرة كونيَّة ، مثل البركان حين ينفجر ، أو جند لضربهم وإهلاكهم . لعلَّه بركان بما يحملُ من معادن وغازات ، أو نحوها ، فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ . والأولى أن نفسر على ظاهر ما في القرآن ، حين قال : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ (النجم:٥٣-٥٤).

أهلك هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث ، كما قال القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٤)، قرية اسمها سَدُوم وعاموراء، كما جاء في التوراة، قُلبت هذه القرية وانتهت ، قُطِعَ دابر أهلها تمامًا ، عقوبة من الله لهذا الأمر الذي استحدثوه من دون العالمين .

أوصاف قوم لوط عليه السلام في القرآن :

القرآن وصفهم بأسوأ ما يُوصف به البشر على لسان سيِّدنا لوط عليه السلام قال : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠) ، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف:٨١) ، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل:٥٥) ، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء:١٦٦) ، ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٠) .

وصفهم بالإسراف والجهل والاعتداء والإفساد وذم القرية ﴿ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٤) ، ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (العنكبوت:٢٩) ، هذا الأمر جعلهم يقطعون السبيل ، اشتغلوا قطَّاع طريق ، لا ليستولوا على الأموال ، ولكن ليأخذوا الرجال والشباب ، وليعملوا هذه الخبائث ، والذي أغراهم بالملائكة أنَّهم جاءوا في صورة شباب حسان الوجوه ، فزادهم هذا إصرارًا على الشرِّ ، فمن أجل ذلك عاقبهم الله على إجرامهم وإفسادهم وفسوقهم وجَهْلهم وإسرافهم بهذه العقوبة الشديدة .

تقنين الشذوذ الجنسي في عصرنا :

وللأسف في عصرنا قامت الحضارة الحديثة ، الحضارة الغربيَّة التي يُسمِّيها بعضهم الحضارة الكونيَّة ، الحضارة التي تسُودُ الكون ، وتسودُ العالم ، جاءت هذه الحضارة لتعيد من جديد عادة قوم لوط .

قوم لوط جاءوا بأن يستغني الذكور بالذكور ، فلم تكتفِ بهذا الحضارة الحديثة ، بل جاءت باستغناء الإناث بالإناث ، زادوا بالطين بِلَّة ، والداء عِلَّة ، ثم جعلوا هذا أمرًا مقنَّنًا .

كان قوم لوط أهل قرية من القرى ، مهما فعلوا لن يُؤثِّر ذلك في العالم ، ولكنَّ الحضارة الغربية حضارة ممتدة واسعة ، تُؤثِّر في أمريكا ، تُؤثِّر في أوربا ، تُؤثِّر في أستراليا ، تُؤثِّر على بلاد كثيرة في العالم ، في آسيا وإفريقيا ، جاءت بهذا الشذوذ الجنسي ، بل كما ذكرت من قبل ، لم يعودوا الآن يُسمُّونه شذوذًا ، بل يُسمُّونه مثليَّة ، وسمَّوا هؤلاء الشاذين بالمثليين ، أي الذي يستغني بمثله ، الرجلُ يستغني بالرجل ، والمرأةُ تستغني بالمرأة . وسَنُّوا قوانينَ تبيحُ هذا الأمر ، وتقرُّه وتعتبره أمرًا مباحًا .

وللأسف أقرَّت هذا أيضًا بعض الكنائس النصرانيَّة ، وأصبح يوجد في أوروبا وأمريكا بعض القساوسة الذين يعلنون في الصُّحف ، أو يعلنون في التليفزيونات : القس فلان الفلاني يعقد عقود الزواج المثليَّة . يذهب القسيس يبارك هذا الزواج المثلي ، فيكتبه القسيس .

انظروا ماذا حَدَث في هذه الحضارة الغربية ، وأصبح هؤلاء لهم سلطان ، أصبحوا من الجماعات الضاغطة على السياسيين ، ولهم في الانتخابات تأثير على الرؤساء في أمريكا ، وفي غيرها من البلدان الكبيرة ، فيخطبون ودَّ هؤلاء المثليين ، لأنهم أعداد كبيرة ، فمَن كان في صفِّه أعداد مثل هؤلاء ربما يكون هو الناجح في الانتخابات ، هذا ما حَصَل في الحضارة الغربية ، التي يَتَباهى بها المتباهون ، ويفخر بها المتفاخرون .

حملة مغرضة :

ومنذ نحو سبع سنوات(١) ، كنتُ في مدينه لندن ، أرأس اجتماع المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث ، وكذلك الاجتماع الأول للجمعيَّة التأسيسية الأولى لإنشاء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، فقامت عليَّ حملة ضخمة كبيرة ، تولَّتها الصُّحف والإذاعة والتليفزيون بقنواتها المختلفة ، وأدواتها الهائلة ، كانت هذه الحملة من أجل أمرين أساسيين :

أمر يتعلق بالقضيَّة الفلسطينيَّة : أني أقول بإباحة العمليات الاستشهادية للفلسطينيين ، الذين يُذبحون ويُشَرَّدون وتُغْتَصَب أرضهم ، وتُقْتَلع زراعاتهم وأشجارهم ، ويُفعل بهم ما يُفعل ، فمن حقِّهم أن يُدَافعوا عن أنفسهم ولو بالعمليات الاستشهادية .

والأمر الآخر : هو أنني أقف موقفًا عدوانيًا من الشواذِّ . سألني مندوب التليفزيون البريطاني في أحد برامجه الشهيرة : إنك تقف موقفًا عدوانيًا من هؤلاء

(١) في سنة ٢٠٠٤م .

الشواذّ أو المِثْليين ، وهم يمارسون حقَّهم . أصبح هذا من حقوق الإنسان ، يمارسون حقَّهم في الاستمتاع ، ما لكم تقفون ضدَّ هؤلاء؟

موقفي من الشاذّين جنسيًّا :

وقلتُ لمندوب التليفزيون الذي سألني : إنني لستُ وحدي الذي أقفُ من هؤلاء هذا الموقف ، إنَّ هذا موقف الأديان الكتابيَّة الكبرى ، موقف اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام ، موقف التوراة والإنجيل والقرآن ، موقف حاخامات اليهود وآباء النصارى وعلماء الإسلام ، بل موقف كلِّ فلسفه أخلاقية سوية . ولو أنَّ الناس استجابوا لهذه النزعة الشهوانيَّة لانقرضت البشريَّة بعد جيل أو جيلين ؛ لأنَّ البشريَّة لكي تبقى لا بدَّ أن يظلَّ الزواج الفطريّ الطبيعيّ الشرعيّ ، الذي يرتبط فيه الذكر بالأنثى ، أو ترتبط فيه المرأة بالرجل ، هذا هو الذي يمكن أن يُنْجب أولادًا (أبناء وبنات) ، لكن حين يكتفي الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ، ستفنى البشريَّة ، لو استجاب الناسُ لهذه النَّزْعة سيفنون لا مَحَالة .

فللأسف ، كيف رأينا البشريَّة قد ضلَّت الطريق ، وكيف تلوَّث سُلوكُ الناس ، وكيف بَعُدت هذه الحضارة عن منهج الأنبياء ، عن منهج رُسُل الله عليهم السلام . وقد ذكرت كتب السماء التوراة والإنجيل عمَّا أصاب سَدُوم وعاموراء ، قرية لوط ، وقوم لوط من عذاب الله عزَّ وجلَّ ، ولكن هؤلاء في وادٍ ، وكتب السماء في وادٍ آخر ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الحجر:٧٣-٧٤) ، عند وقت الشروق أصابهم ما أصابهم .

آياتٌ وعبرٌ للمُعْتَبرين :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١)

في هذه القصَّة آيات وعبر للمتوسِّمين : أي : المُتفرِّسين ، المتوسِّم هو الذي

(١) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور الذي في قصَّة إبراهيم ولوط ، ﴿ لَأَيَٰتٍ ﴾ دلالات على وحدانية الله وقدرته وتفرُّده بالصفات الجليلة ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للناظرين المعتبرين المتأملين المتَعظين بما يعلمون ويتدبرون من الأحداث والحقائق .

يعرف بالسِّمة ، كما ورد : «اتقوا فِراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله»[1] ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . وبعضهم قال : المتوسِّمين أي : المُعْتبرين . وبعضهم قال : الناظرين . وبعضهم قال : المتفكِّرين . كلُّها في معنى واحد متقارب ، فالمتوسِّمون الذين لهم عقول يعتبرون بها ، لا تمرُّ عليهم هذه القصص وهم غافلون عنها .

لماذا قصَّ الله علينا القصص ، للتسلية ؟ لا : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف:١١١) ، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود:١٢٠) ، في هذه القصص عبرةٌ لمَن يعتبر : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

مكان قرية (سدوم) :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾

القرية التي أصابها عذابُ الله عزَّ وجلَّ في طريق واضح سهل مُيسَّر للجميع لم يندثر ، لا زال ثابتًا باقيًا ولا زال ظاهرًا ، كما قال الله في سورة الصَّافَّات : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات:١٣٧،١٣٨) ، هذه القرى وأنتم ذاهبون إلى الشام من المدينة ، في المملكة الأردنية حاليًا ، تمرُّون عليها في الطريق ، انظروا واعتبروا يا أُولي الأبصار : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ .

هذه هي قصَّه لوط وقومه ، الذين سَخروا من لوط وقالوا : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل:٥٦) ، أصبح لوط هو المذنب ، هو المُتَّهم بالجريمة ، إنه يتطهَّر ، الطهارة أصبحت تهمة في هذا المجتمع ، إنهم أناس

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٢٧) وقال : حديث غريب ، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٣) ، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨٢١) ، عن أبي سعيد الخدري .

يَتطهَّرون ، وللأسف أصبح المجتمع مجتمع قوم لوط كلهم تقريبًا على هذا الحال إلا بيت لوط ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الذاريات: ٣٦) .

امرأة لوط هلكت مع قومه :

حتى امرأة لوط ، لم تَفْلت من هذا السُّوء والعياذُ بالله ، وهذا من أقدار الله ، أن ترى المرأة الكافرة تحت رجل مؤمن ، وترى المرأة المؤمنة تحت رجل كافر :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحريم: ١٠).

أما المرأة الأخرى فهي امرأة فرعون ، كانت مؤمنة تحت رجل كافر ، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(التحريم: ١١) .

آيةٌ للمؤمنين :

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1]

إنها آيةٌ للمُتوسِّمين ، وآيةٌ للمؤمنين . هذا تأكيدٌ على أنَّ في هذه القصة عبرة ،

---

(١) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي : ما صارت عليه ديارُ قوم لوط : ﴿ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : آية من آيات الله الجزائيَّة العقابية ، وهي دالة على سنة من سنن الله في عباده المجرمين . وهذه الآية ينتفع بدلالتها الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا . اسم الفاعل في عبارة (للمؤمنين) بقوة الفعل المضارع ، يصلح لأن يقع على الحال وعلى الاستقبال بحسب الوضع اللغوي .
ويلاحظ أن الآيات : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧) جاءت فيها مؤكَّدات بـ (إنَّ ، والجملة الإسمية ، واللام المزحلقة للخبر) لأن معظم المخاطبين يغفلون عن التبصُّر بحقائق هذه الآيات ، فهم بحاجة إلى التوكيد المشدَّد ، لتحريض أفكارهم على دقة التأمُّل وحُسْن التَّدبُّر .

وأنَّ فيها تبصرة ، وأنَّ فيها تذكرة ، فيها آيةٌ للمؤمنين الذين صدَّقوا الله والأنبياء والرسل ، كما أنها آياتٌ للمتوسِّمين ، هذا توثيقٌ وتأكيدٌ للآية السابقة : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] .

---

(١) قال العلامة الخطيب الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) (٢/ ٧٧٣ ، ٧٧٤)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وقال في الآية التي بعدها : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

للسائل أن يسأل عن جَمْع (الآيات) أولا ، وتوحيدها آخرًا فيقول : لم اختصَّت الأولى بـ (الآيات) والثانية بـ (الآية) على التوحيد ، وهل كانت (الآيات) لو ذُكرت في الثانية ، و(الآية) لو ذكرت في الأولى ، فما يكون في اختيار الكلام؟

والجواب أن يقال : (ذلك) في قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ إشارة إلى ما قُصَّ من حديث لوط وضيف إبراهيم ، وتعرُّض قومه لهم طمعا فيهم ، وما كان من أمرهم آخرًا من إهلاك الكفار وقلب المدينة على من فيها وإمطار الحجارة على من غاب عنها ، وهذه أشياء كثيرة ، في كل واحدة منها آية ، وفي جميعها آياتٌ لمن يتوسَّم ، أي يتدبَّر السِّمة ، وهي ما وَسَم الله تعالى به العاصين من عباده ليستدلوا بها على حال من عَنَدَ عن عبادته فيتجنبها ، فكان ذكر الآيات ها هنا أولى وأشبه بالمعنى .

وأما قوله : ﴿ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلأنَّ قبلها : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي تلك المدينة المقلوبة ثابتة الآثار ، مقيمة للنظار ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها ، وهذه واحدة من تلك الآيات ، فلذلك جاء عقيبها : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى .